مختصر محاضرات مقياس : نظرية النظام

1/- النظم :

أ/ في اللغة: جاء في لسان العرب: "النظم: التأليف، نظمه ينظمه نظما ونظاما ونظّمه فانتظم وتنظّم ونظمتُ اللؤلؤ أي جمعته في السِلك، والتنظيم مثله ومنه نظمتُ الشعر...، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمتَهُ...، والنّظم ما نظمته من اللؤلؤ وخرز وغيرها، والنظام ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام"(ابن منظور جمال الدين ، لسان العرب ، ص:578/12). وهو: "ضم شيء إلى شيء آخر"(الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، ط/8، بيروت ، ص :1162).

ب/في الاصطلاح: لا تخرج دلالة النظم في الاصطلاح عن حقيقة دلالتها اللغوية من حيث المبدأ ، وإليك ما ذهب إليه أحد الدارسين لهذا المصطلح و متعلقاته، "ونظم الكلام عند البلاغيين هو تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النحو المتخيرة والموضوعة في مكانها على الوجه الذي يقتضيه العقل"(عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، من بلاغة النظم العربي ،عالم الكتب ، ط2 ، لبنان سنة : 1984، ص :7/1). وليس النص إلا محاولة صياغة حديثة ساعية إلى تقريب فهم ما ذكره الجرجاني عندما قال: "فاعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله..."(الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص : 81).

وأنه بهذه الرؤية المتقدمة من خلال المفهوم المتضمن في البعد الاصطلاحي يكون الجرجاني قد: "انتهج منهجا علميا لدراسة النظم وجعل هذا المنهج هو السبيل إلى الفهم الصحيح لمسألة البلاغة والإعجاز"(أحمد محمد آمين اسماعيل ، الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني ....دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط/1، سنة 2011،ص:22)، وإنما عدّ تفسير التحرير والتنوير من أهم التفاسير ذات التوجه اللغوي الكاشف عن الأبعاد الجمالية المحققة لقيم الإبهار، لأنه تمثل حس الجرجاني وقد أكثر الوقوف على قواعده في الكشف والفهم، التي منها: "أن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه...، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم"(ابن عاشور محمد الطاهر ،التحرير والتنوير، ص :19/1)، ويقول في موضع آخر: "إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها..."(التحرير والتنوير، ص :110/1).

2/ مشروعية القول بمصطلح النظم:

ذكر أحد الدارسين المعاصرين: "أن من أوائل من تناول ذلك ووصف كلام الله به من علماء السلف المشهود لهم بالاستقامة في الدين وحسن المعتقد والانتصار لمذهب أهل السنة والجماعة ابن قتيبة"(الحنين ناصر بن عبد الرحمن،النظم القرآني في آيات الجهاد ، مكتبة التوبة ، ط/1، الرياض ، السعودية ،سنة :1996، ص:10). ثم يشفع هذه

الملاحظة بجملة من الدعائم التراثية مثل ما قال به ابن قتيبة متحدثا عن القرآن الكريم: "... وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وإبانة بعجيب النظم عن حيل المتكلفين... لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب وجمع كثيرا من معانيه في قليل من لفظه"(ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق ابراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية ، لبنان، ص :11).

ويشير صاحب تفسير المحرر الوجيز ابن عطية إلى مصطلح النظم، وقد قرنه بمسألة الإعجاز في التعبير القرآني، فبعد قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يونس/38، ذكر أن: "التحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن، أحدهما النظم والرصف والإيجاز والجزالة... وحين تحداهم بعشر سور مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده"(الأندلسي عبد الحق بن عطية ، المحرف الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ، ط/1، بنان، سنة 1422هـ ،ص :120/3).

وعند السيوطي الذي يعتبر الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن الكريم: "حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحتها ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن فجاء نطقه عجيب، وأسلوبه الغريب مخالفا لأساليب كلام العرب ومنهاج **نظمها** ونثرها"(السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط/1، سنة:1988،ص .23/1).

3/ الآيات التي تحدى بها القرآن الكريم العرب:

الآيات حسب ترتيب نزولها:

1- قوله تعالى ﴿قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الانسُ والجِنُّ عَلىَ أَن يَاتُوا بِمِثْلِ هذَا القُرآنِ لاَ يَاتُونَ بِمِثلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، الإسراء/88.
2- وقوله تعالى ﴿فَلْيَأتُوا بِحَدِيثٍ مِثلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾، الطور/34.
3- ثم قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هود/13.
4- ثم قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولوُنِ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسَتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ يونس/38.
5- ثم قال تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلىَ عَبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾، البقرة/23

ويتضح في النص القرآني الذي تلا التحدي الأخير أن الله عزّ وجلّ حسم هذه القضية حين قال ﴿وَإِنْ لمَ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ البقرة/24، وقد كان هذا حسم من القرآن الكريم بعجز العرب حاضرا ومستقبلا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم "وتحقق هذا العجز فعلا يعد ذلك الدليل على مصدر القرآن فلو كان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لما جزم هذا الجزم"(الخالدي صلاح الدين عبد الفتاح ، اعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمان لنشر والتوزيع ، الأردن ، ط/1، سنة 2000، ص : 10).

4/القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم

أ/ نشأة القول بالصرفة:

قد جاء بيان نشأة القول بالصرفة أن أوّل من قال بها وابتدعها واشتهرت على يده هو إبراهيم بن سيار النظام البصري المعتزلي، المتوفى سنة (231هـ)

ب/ تعريف الصرفة: د. إبراهيم بن منصور التركي (ينظر : القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم ، عرض ودراسة ، مجلة جامعة ام القرى لعلوم اللغات وآدابها ، العدد :02، سنة 2009، ص: 156 وما بعدها..)

- **الصرفة لغة**: أن تصرف إنسانا عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك
- **الصرفة اصطلاحا**: صرف الله هِمَمَ العرب عن معارضة القرآن الكريم

ج/ القائلون من العلماء بالصرفة

ثم يلخص هذا الباحث أراء القائلين بالصرفة بكثير من الدقة، يقول: "يلاحظ أن الصرفة اتخذت ثلاث صور، الأولى: أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهو في مقدورهم وهذا هو رأي النظام، والثانية: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن –وإن لم يكن في مقدورهم- حتى لا يلتبس الأمر على العامة، وهذا رأي الجاحظ...، والثالثة: أن الله صرف العرب عن معرفة العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة لذلك لم يستطيعوا معارضته، وهذا هو قول الشريف المرتضى وابن سنان.

د/ أبرز العلماء الذين رفضوا فكرة الصرفة

من أوائل من رفض القول بالصرفة الخطابي (388هـ) مستدلا بقوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَاتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَاتُونَ بِمْثْلِهِ وَلَوْ كاَنَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء/88.

ومن العلماء الذين أنكروا الصرفة أيضا الباقلاني (304هـ)، ومنهم القاضي عبد الجبار (415هـ) مستدلا بذات الآية الكريمة الآنفة الذكر، ثم يأتي الإمام عبد القاهر (471هـ) ويرفض الصرفة ويسعى سعيا حثيثا لإبطالها بإيراده جملة من الأدلة القاطعة على ذلك منطلقا من المنطلق نفسه الذي اعتمده الخطابي، أي آية الإسراء/88، منتصرا طبعا للقول ببيان القرآن الكريم المعجز الذي سوف نعالجه عند التعرض لنظرية النظم.

إنما كان إيراد آيات التحدي في التعبير القرآني ، ثم الحديث عن الصرفة التي زعم أصحابها الإجابة عن سؤال عدم قدرة العرب على الإتيان بمثل القرآن الكريم ، رغم أنه نزل بلغتهم ، وعلى طريقتهم في الأداء البياني ، وقد في إجابتهم المحفز الأساسي لنشأة نظرية النظم ، التي ترى النظم القرآني السبب الوجيه في تفسير ذلك العجز ، ومنه جاءت البحوث ذات الطبيعة الجمالية في البلاغة العربية ، والتي بلغت قمتها تنظيرا وتطبيقا مع الإمام الشيخ عبد القاهر الجرجاني .

5/عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم

إفادة عبد القاهر ممن سبقه إلى هذا التوجه:

لقد أسلفنا بما تقدم وكان القصد الإبانة عن طبيعة الخلفية التي أصدر عنها **الجرجاني** في حديثه الناضج المتقدم الدقيق عن نظريته في النظم التي سوف تكتمل لديه تنظيرا وتطبيقا، و قد أصدر الرجل عن أصول تراثية مهمة ، يتحدث **الرافعي** مصوّبا التراتبية التاريخية في الحديث عن هذا الاتجاه بالقول بالإعجاز في الأسلوب القرآني إلى البيان: "أما الرأي المشهور في الإعجاز البياني الذي ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني... فكثير من المتوسمين بالأدب يظنون أنه أول من صنف فيه ووضع من أجله كتابه المعروف، وذلك وهم، فإن أول من جوّد الكلام في هذا المذهب وصنف فيه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفي سنة: 306هـ، ثم **أبو عيسى الرماني** المتوفي سنة: 382هـ، ثم **عبد القاهر**..."(الرافعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط/8، لبنان ، سنة :2005، ص:103).

بل من الدارسين من يحيل إلى ما قبل ذلك، حيث عبد الله بن المقفع الذي قال مشيرا إلى ما يفيد بدلالة النظم البلاغية: "فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقول قولا بديعا، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم، وإن أحسن وأبلغ، ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا، فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه وما يزيده بذلك حسنا، فسُميَ بذلك صانعا رفيقا..."(عبد الله بن المقفع ، الأدب الصغير ، قرأه وعلق عليه وائل ابن حافظ ، دار الارقم ، الإسكندرية ، ص :22).

كما رصد باحثون جذورا تاريخية قديمة عند غير العرب أيضا ، سلكت سبيل بحث قيم الامتياز في أساليب القول **فأرسطو** "عقد في كتابه (فن الشعر) فصلا تكلم فيه على أقسام الكلمة والفروق بين أقسامها والمقاطع والحروف والأصوات... التي رآها ضرورية في البلاغة"(أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ، دار العلم للملايين ، ط/1 ، بيروت ، سنة : 1973 ، ص:51)، وتحدث في "المقالة الثالثة من كتاب (الخطابة) عن مراعاة الروابط بين الجمل والأسلوب المفصل والأسلوب المقطع وحذف أدوات الوصل والتكرار..."(المرجع نفسه، ص :51).

والأمر ذاته وجد عند الهنود، وذلك "ما ذكره الجاحظ في (البيان والتبيين) عن الصحيفة الهندية وما جاء فيها من أصول تتصل بالخطيب وصفاته وبالأسلوب.."(المرجع نفسه ،ص:51). وبالاطراد في الحديث عن المرجعيات المؤسسة لفكرة القول بالنظم يتسع مجال القول، فحسبنا هذا القدر، ولمن طلب المزيد ففي المصادر التراثية والحديثة والمعاصرة ما يفي بالقدر ويزيد.

6/من مقومات نظرية النظم:

أ/ معاني النحو:

يظل عبد القاهر متحدثا عن النظم حتى عدّ بعضهم ذلك تكرارا منه، بل منهم من رأى من شأن ذلك أن يحدث نوعا من الإرباك بالنسبة لمتلقيه، بخلاف هؤلاء ، رأى آخرون إنما فعل عبد القاهر ذلك لحساب التأكيد ومحاولة الإضافة، فإذا شئنا وقفنا عند كلامه عن النظم من حيث صحته وفساده، مرجعا أمر ذلك في انسجام تام مع تعريفه السابق إلى توخي معاني النحو أو الخروج عنها: "فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظمه أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك

المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص :83).

يشفع عبد القاهر هذه الخلاصة بجملة من الأمثلة يقول: "ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد (النظم) فليس من أحد يخالف في نحو قول **الفرزدق**:

وما مثله في الناس إلا مُمَلَّكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ثم يورد مجموعة من مثل هذا ثم يعلق كاشفا سبب الفساد، فيقول: "وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من جهة سوء التأليف، أنّ الفساد والخلل كانا من أن تعاطي الشعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير صواب وصنع في تقديم أو تأخير، أو حذف و إضمار، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم، وإذا ثبت أن سبب فساده واختلاله، وأنْ لا يُعمل بقوانين هذا الشأن، ثبت أن سبب صحتّه أن يعمل عليها ثم إذا ثبت أنّ مستنبط صحته وفساده من هذا العلم"(المصدر نفسه، ص :84)، ويرتبط ذلك بوجوب تحصيل المزية القائلة دائما عنده بعنصر الجمالية في الإبداع، وهي محصلة النظم مكيَّف بحسب ما اشترطه: "ثبت أنّ الحكم كذلك في مزيته والفضيلة التي تعرض فيه، وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شيئا غير توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم، والله الموفق للصواب"(المصدر نفسه : ص84).

ب/ التعليق والبعد الإجرائي:

يذكر عبد القاهر أقسام الكلام وما يحكمها من روابط فيقول: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث، اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام، تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"(الجرجاني، دلائل الاعجاز ، ص:54).

أما التعليق الوارد في هذا الشاهد، فهو: "نظام العلاقات"(الحسيني ضياء فاضل، معاني النحو الجرجانية، أروقة لدراسات والنشر ،ط/1، عمان ، الأردن ، سنة: 2010، ص :53)، وهو لا يتحقق إلا بإجرائية مضبوطة هي قوانين القاعدة النحوية، وهذا النظام هو: "السلك الذي تنتظم به الكلم – في هذا التعليق- ما هو إلا (معاني النحو)، ومن هنا تعلم أن تعريف (يعني عبد القاهر) للنظم بأنه (توخي معاني النحو) وهو بيان للشيء بآلته"(المرجع نفسه ، ص :53). وأن مسألة النظم مرهونة لتطبيقات هذا المصطلح – التعليق- يقول: "أن لا نظم في الكلام ولا ترتيب، حتى يعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"(الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،ص:84)، وهذا عنده بديهة كان على كل دارس الانطلاق منها بعد التسليم بها. "وهذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"(المصدر نفسه،ص:55).

ثم يفسّر عبد القاهر طبيعة منظومة التعليق التي تصلح كما ذهب إليه كثير من الدارسين(منهم الدكتور إبراهيم هدهد ، شرح دلائل الإعجاز ، دروس مباشرة من جامع الأزهر الشريف) ، أصولا مشتركة تنتظم تحتها مختلف مفردات النحو العربي، والشيخ ذاته يمهّد لما سوف يطرحه في شأن هذا الأمر

بقوله: "هذا كلام وجيز يطّلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة وينظر فيه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له، حتى رآها في مكان واحد"(الجرجاني ،دلائل الاعجاز ، ص :54).

ويقول في موضع آخر: "فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تُتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول، أو توكيدا له، أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس"(الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص :55).

وللتمثيل لهذه الملاحظات النظرية المؤسسة يقول: "وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق)، وفي قولك: (إن تخْرُجْ أَخْرُجْ، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرجْ فأنا خارج، وأنا خراج إن خرجتَ، وأنا إن خرجتَ خارج)، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: (جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرعُ، وجاءني وهو مسرعٌ أو هو يسرعُ، وجاءني وقد أسرعَ، وقد أسرعَ) فيعرف كل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم تنفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه... وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل... ويتصرّف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير... وفي الحذف، والتكرار والإضمار، والإظهار، ذلك جميعه تحقيقا للغاية التي ليست إلا واحدة مما يستهدف بالنظم على منوال القاعدة النحوية، فيقول: "فيصيب بكل ذلك مكانه ويستعمله على الصّحة وعلى ما ينبغي له"(الجرجاني، دلائل الاعجاز ، ص:83).

ج/ التعليق والخلفية النفسية:

وفي ذات الاتجاه المتعلق ببناء الأساليب، وإضافة إلى منظومة التعليق عند عبد القاهر بمفرداتها النحوية، وجب أن نسجل قناعته التي ظل يلح عليها وربما وقعت الإشارة إليها في الحديث المباشر عن مسألة اللفظ والمعنى، ذلك أن الجرجاني يذكر: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك... وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"(الجرجاني، دلائل الاعجاز ، ص :83)، و "أن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس"(الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص :54)، والأمر عند الجرجاني يحتاج إلى تبصر وهو شديد الارتباط بمسألة التعليق في بناء التراكيب "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتخذ أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس

وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يصنع بيمينه ههنا في حال ما يصنع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين.."(الجرجاني ،دلائل الاعجاز ، ص :54).

نعم يظل عبد القاهر يؤكد هذا المعنى ومعه يتأكد أن البناء الأسلوبي القائم على منظومة التعليق الإجرائية التي وقفنا عليها، إنما هو انعكاس إيجابي لحالة النفس المبدعة للكلام، قد صارت العلاقة واضحة وأن التعليق الحاصل للألفاظ في مختلف تمظهراته (الحذف، الذكر، التقديم، التأخير، الفصل، الوصل، أضرب الخبر، أوجه الاستعمال المعدول للأساليب...) جميعها مردها إلى الحالة النفسية الشعورية المنتجة لها.

د/ من تطبيقات عبد القاهر:

يشفع عبد القاهر ما سبق وأن أشار إليه من أفكار بتحليله لنماذج كثيرة و متنوعة، ويرى أنه ليس صائبا المرور إلى بحث دلالات الكلم بدونها، وربما يرى ذلك رغم إلحاحه الشديد على أن يقنع بصحة وجهة نظره أولا، ثم وأنت تقرأ تلك الأفكار في كتابه دلائل الإعجاز يتملكك شعور، أن عبد القاهر في موضع رد مخالف له حاصل حقيقة أو مفترض، لذلك كانت حاجته إلى كثير من الشواهد العملية تبيانا لما قصد إليه . لذلك تطلب الأمر العودة إليها في مصادرها نورد منها لتمثيل فحسب بعض التطبيقات والتي منها: نظرته في بيت امرئ القيس(ديوان امرؤ القيس، اعتنى به : عبد الرحمن المسطلاوي، دار المعرفة ، بيروت ، ط/2 ، سنة :2004، ص :14) .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　　　بسقط اللّوى بين الدَّخول فحوْمَلِ

"(من نبك قفا حبيب ذكرى منزل)، ثم هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟"(الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص : 40)، والملاحظ أن السؤال في مثل هذا الموضع له ما بعده. يقول عبد القاهر مجيبا: "واعلم أني لست أقول: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا، ولكن أقول إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو ومنطقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخّيها فيها كالذي أريتك، وإلا فإنك فكرت في الفعلين أو الاسمين تريد أن تخبر بأحدهما عن الشيء أيّهما أولى أن تخبر به عنه وأشبه بغرضك، مثل أن تنظر أيّهما أمدح وأذم، أو فكرت في الشيئين تريد أن تشبه الشيء بأحدهما أيهما أشبه به كنت قد فكرت في معاني أنفس الكلم، إلا أن فكرك ذلك لم يكن إلا من بعد أن توخّيت فيها معاني النحو، وهو أن أردت فيه مدحا أو ذما أو تشبيها أو غير ذلك من الأغراض، ولم تجئ إلى فعل أو اسم فكرت فيه فردا ومن غير أن كان لك قصد أن تجعله خبرا أو غير خبر فاعرف ذلك"(الجرجاني ،دلائل الاعجاز ، ص:41).

وإذا شئنا أن ندعم قراءة عبد القاهر بما يؤيدها من النقد المعاصر حتى يُطمئنّ لنفاذ نظرته وقدرته على المقاربة المنتجة من خلال بحثه عنصر الجمالية المتوخاة من الإجراء الأسلوبي، نظرنا فيما يلي، وقد كان الحديث عن جمالية الحذف في بيت من الشعر للبحتري. يقول عبد القاهر منوها بإجرائية الحذف وبعده الأسلوبي المفضي إلى استفزاز قدرات المتلقي حتى يطلب مزيدا من الفهم: "أن الذي قلت في شأن الحذف وفي تفخيم أمره، والتنويه بذكره، وأنّ مأخذه يشبه السحر، ويبهر الفكر..." "(الجرجاني ،دلائل الاعجاز ،

ص:171).، ثم يمثل لذلك بقول البحتري "وهو يذكر محاماة الممدوح عليه، وصيانته له ودفعه نوائب الزمان عنه:

وكم ذدت عنّي من تحامل حادث وسورة أيام حزَزْنَ إلى العظمِ

الأصل: لا محالة حززن اللحم إلى العظم، إلا أن مجيئه به محذوفا وإسقاطه له من النطق، وتركه في الضمير، مزية عجيبة وفائدة جليلة وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئا غير المراد، ثم ينصرف إلى المراد، ومعلوم أنه لو ظهر المفعول فقال: وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم، لجاز أن يقع في وهم السامع إلى أن يجيئ إلى قوله إلى العظم، أنّ هذا الحزّ كان في بعض اللحم دون كله وأنه قطع ما يلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم... ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحزّ مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم" ثم ينتهي بنا إلى تأكيد صدقية معالجته فيذكر: "أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك، من أنك قد ترى الترك أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير، أحسن للتصوير؟""(الجرجاني ،دلائل الاعجاز ، ص:173).

وفي تعليق معاصر مطمئن من حيث المعالجة الجرجانية، يقول عبد العزيز حمودة: "إن تلك السطور الطويلة لم يكتبها عبد القاهر في تحليل بيت من الشعر، بل في تحليل الوظيفة الجمالية الدلالية التي أداها حذف كلمة واحدة في البيت هي المفعول به في (حززن إلى العظم) ألا يخلق السكوت عن (اللحم) هنا (فجوة) يقوم المتلقي بملئها، بالمعنى الحداثي وما بعد الحداثي أيضا؟ أليس هذا على وجه التحديد ما يعنيه عبد القاهر حينما يحوّل الحذف إلى مبدأ نقدي سبق إليه نقاد النصف الثاني من القرن العشرين"(عبد العزيز حمودة ، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية ، المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سنة 2001، ص : 376)

يتبع عبد القاهر ملاحظاته هذه وهي في مجموعها خلاصة مركزة لكثير مما دعا إليه من عناصر بنائية تجتمع كلها تحت مسمى النظم، بهذه القراءة الجمالية ليس لقضايا النحو ومعانيه فحسب، بل لمجموع ما تمثله علوم اللغة للآيات الكريمات مبينا دلالة أن يكون مرد الإعجاز لطبيعة البيان القرآني. يقول: "وهل تشك في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود/44. فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لمن يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى الثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن يستقريها إلى آخرها وأنّ الفضل تَنَاتَج ما بينها، وحصل من مجموعها، وإن شككت، فتأمل: هل لفظة منها بحيث لو أُخِذَتْ من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ (يا) دون (أي)، نحو: (يا أيتها الأرض) ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف)، دون أن يقال (ابلعي ماءَك)، ثم أن أُتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك، بما يخصها، ثم أن قيل: (وغيض الماء)، فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى (وقُضي الأمرُ)، ثم ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي)، ثم إضمار (السفينة) قبل

الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟""(الجرجاني ،دلائل الاعجاز ، ص:45).

وقد ارتأيت الجمع بين مقدّمات النظرية، ثم محاولة شفعها بهذا النموذج العملي رغبة في صناعة منصة انطلاق لمحاورات عديدة تخص القراءة الجمالية الكاشفة لمناط الإعجاز في أسلوب القرآن الكريم عند الجرجاني خاصة، وعند القائلين بنظرية النظم عامة. ولمن طلب المزيد نظر في دلائل الإعجاز أو في عموم ما كتب عن هذه النظرية، كما يمكن الرجوع إلى تطبيقاتها العملية عند الزمخشري والرازي قديما، وما وجدناه عند محمد الطاهر ابن عاشور حديثا في تفسيره التحرير والتنوير.

7/ المتأخرون ونظرية النظم

1- **بدوي طبانة:**

يقول في كتابه: "البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية" ممهدا لحديثه عن عبد القاهر: "يمكن اعتبار عصر عبد القاهر مرحلة النضج والرشد الفكري في تلك الحياة، فالذوق العربي جارى سنة الطبيعة فترقى... إلى مراتب التذوق المنظم القائم على تعرف علل التأثر وأسبابه"(بدوي طبانة ، البيان العربي ، دراسة تارييخية فنية في أصول اللغة العربية ، مطبعةالرسالة ، ط/2 ، القاهرة ، سنة : 1958، ص : 116).

ويقول أيضا: "إن عبارات (البلاغة، والفصاحة، والبيان) وما شاكلها من المصطلحات تكاد تتقارب في نظر عبد القاهر، لأنها جميعا –كما يقول- يعبر بها عن فضل بعض القائلين على بعض"(المرجع نفسه، ص : 117)، ثم يذكر أنه: "تنهض فلسفة عبد القاهر البيانية على أساس فكرة النظم، وليس للنظم معنى عنده سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"(المرجع نفسه، ص : 120)، ويرجع بقضية النظم هذه إلى "أن هذه الفكرة لم يكن عبد القاهر مخترعا لها، وإن كان هو الذي بسط فيها القول... وإنما كانت وليدة ذلك الصداع الذي أثاره امتزاج الثقافات"(المرجع نفسه، ص : 120).

ويسجل أن عبد القاهر يرى أنه: "لا قيمة للكلمة قبل دخولها في التأليف... والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها"(المرجع نفسه، ص : 125). ويرى أن الذي يقف وراء البنيات اللغوية هو: "العقل هو الذي يصطنع هذه الفكرة وينظمها وينسقها..." (المرجع نفسه، ص : 128).

وبعد طول دراسة لمسألة النظم وانعكاساتها الإيجابية في مستوى التحليل والكشف ينتهي إلى نتيجة مفادها "أن البيان العربي لم يظفر بمثل هذا الأسلوب التحليلي الذي فيه مثل هذا البحث العميق والاستقصاء الدقيق في أية مرحلة من مراحل حياته... حقا إن عبد القاهر لم يهمل القاعدة أساسا للدراسة، ولكن تلك القاعدة تنزوي وتتضاءل أمام هذا البحث العملي المتسع الأطراف... ولعل من الصواب أن يقال إن عبد القاهر واضع أسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية ومسايرة العبارات لها ودلالتها عليها"((المرجع نفسه، ص : 133).

2- **درويش الجندي**:

ألف كتابه (نظرية عبد القاهر في النظم) أبان فيه عن هدف عبد القاهر من نظرية في النظم فقال: "من أجل ذلك فقد استهدف عبد القاهر بنظريته في النظم: بيان أن جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي، وأن القرآن هو المعجزة التي أيد بها الله محمدا عليه السلام، ولما كان الغالب على زمان محمد عليه السلام في قومه العرب البلاغة والبيان كانت معجزته هي القرآن ومن شرط المعجزة أن تكون أمرا خارقا للعادة..."(درويش الجندي ، نظرية عبد القاهر في النظم ، ص : 47). ثم يصل إلى نتيجة هي أن ذلك هو الذي ترك عبد القاهر وقد "قصر حقيقة الكلام وفصاحته وبلاغته على النظم بالمفهوم الذي حدده"(المرجع نفسه، ص : 48)، ودرويش الجندي يعود بنظرية النظم إلى ذات الأصول التي أعادها إليها، إذ "إن معاني النحو إذن هي التي يتعلق بها الفكر، وهي تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس، وإليها يستند ترتيب هذه المعاني في النفس"(المرجع نفسه، ص : 53)، وفي الخاتمة يقول الجندي: "لقد كانت نظرية النظم لدى عبد القاهر دعوة صارخة إلى دراسته النحو على منهاج جديد يقوم على الحس والذوق وحسن التخير، بدلا عن ذلك المنهاج التقليدي الذي يوجه العناية إلى الإعراب"(المرجع نفسه، ص : 122).

3- **وليد محمد مراد**:

ألف كتابا عنوانه: "نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية" ذكر فيه أن عبد القاهر "لا يقصد من النظم إلا تأليف الكلام وفقا لأبواب النحو المختلفة..."(وليد محمد مراد ، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر ، ص :56)، ورأى أن: "عبد القاهر بإحساسه المرهف وذوقه النامي، يقارن صياغة الكلام بصياغة المعاني النفسية، ونسج الكلام بنسج الحرير، وترتيب النظم بالتصوير المبدع..." (المرجع نفسه، ص : 126)، ثم يستشهد على مدى فاعلية النظم في رصد مواقع الجمال وأسراره في التعبير اللغوي بما ذهب إليه سيد قطب حيث قال: "إن فضل عبد القاهر في تقريره هذه القضية عظيم، ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة"(المرجع نفسه، ص : 138).

ويخلص **وليد مراد** حديثه عن النظم الجرجاني إلى نتيجة مفادها: "لم يفصل عبد القاهر بين اللغة والفكر إلا فصلا مظهريا، لإيمانه بمتانة هذه الرابطة وبثباتها (المرجع نفسه، ص : 156).

4- **أحمد مطلوب**:

ألف في نظرية النظم كتابا عنوانه: "عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده" قال في مقدمته: "عبد القاهر ليس ممن نسيهم الباحثون، فهو علم من أعلام الفكر الإسلامي أثرى الدراسات العربية بما ألف في النحو والصرف والبلاغة والنقد"(أحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، ص :05)، و أنه: "أرسى نظرية النظم التي أدار عليها مباحث اللفظ والمعنى والصور البيانية وإعجاز القرآن"(المرجع نفسه، ص : 05

وربما ختمنا أهمية نظرية النظم وكيفية مقاربتها لقضايا اللغة عموما وقضية النحو خاصة. بدعوة إبراهيم مصطفى إذ يصرح: "لقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا وأن يكون سبيل البحث اللغوي... إن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب، ويزنها بقدرتها على رسم المعاني، والتأثير بها، من بعد ما عاف الصناعات اللفظية، وسئم زخارفها"(إبراهيم مصطفى ، إحياء النحو ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة ، سنة :2014، ص :27).

8/ بين النظم و الأسلوبية:

بالنظر فيما سبق من ربط للبلاغة بالأسلوبية، انطلاقا من أن البحث البلاغي يستند على قاعدة لغوية نحوية شأنه شأن الأسلوب، نجد أن هذه الخلاصة تحيلنا إلى ما ذكرناه بشأن نظرية النظم، إذ وجدنا التصريح عن ذلك واضحا فيما ذهب إليه عبد القاهر، حيث يقول: "ثبت أن ليس هو شيئا غير توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم والله الموفق للصواب"(دلائل الاعجاز ، ص :84)، وعنده أيضا: "وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله"(المصدر نفسه، ص : 81)، "فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظن أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفصل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(المصدر نفسه، ص : 83).

وفي قراءة حديثه لهذه المقولات الجامعة لطبيعة البنية اللغوية إلى تداعياتها في مستوى الدلالة يقول أحد الدارسين: "وعلى هذا بنى عبد القاهر فكرته عن النظم، وأفضى به النظر إلى ما انتهى إليه أصحاب مدرسة النحو التحويلي التوليدي من أن اللغة وإن تكن أصواتها ومفرداتها وقواعدها متناهية، فإن الجمل التي ينتجها مستعملو اللغة غير متناهية، لكن عبد القاهر ربط ذلك بتنوع (اختيار) التراكيب لدى مستعمل اللغة"(محمد عبد الله جبر ، الأسلوب والنحو ، دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية ، دار الدعوة ، الاسكندرية ، مصر ،ط/1، سنة 1988، ص :15)، وقد قصد بهذه الملاحظة نظرة الجرجاني التالية: "وإذ عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها... ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها عن بعض واستعمال بعضها مع بعض"(الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص :57).

ولم نعد في حاجة إلى معاودة التذكير بمسألة التعليق، التي اعتبرناها إحدى أسس النظم وانعكاسها في مستوى التماسك والانسجام حفظا للمعنى من ألاّ يصل إلى متلقيه سالما، مع ضمان الجمالية إذ تصير اللغة مطواعة تتشكل بحسب الخلفيات الشعورية للمبدع، وفي الوقت ذاته وبما تسمح به مثل هذه المطاوعة من صناعة المنبهات الأسلوبية المحققة لتجاوب المتلقين، قد أسلفنا أنّ منطلقات عبد القاهر التي تتأسس على القاعدة النحوية المتمثلة في بعض الظاهرات (التقديم والتأخير، الذكر والحذف، الوصل والفصل، التعرف والتنكير، أضرب الخبر...الخ) جميعها تشكل نقاط تقاطع بين مباحث النحو والبلاغة، وأن التوليفة الفنية هي تلك التي أطلق عليها عبد القاهر مصطلح النظم الذي من إفرازاته ضمان الصحة كما رأينا وامتداداته ضمان الجمالية: "مفاهيم البلاغة العربية وأسسها وقواعدها هي مفاهيم الجمالية الأدبية في تراث العرب الفكري"(ميشال عاصي ، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ، مؤسسة نوفل ، نقلا عن عبد القادر فيدوح ن الجمالية في الفكر العربي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، سنة : 1981، ص: 47).

ويمثل الذي ذهب إليه الجرجاني في أبعاد النظم الإجرائية إن في مستوى الصيغة أو التراكيب أو الصور، يجد الباحثون ارتباط تلك المظاهر الخارقة للعادة في مستوى اللغة بالجمال، وإن شئت فانظر إليه متحدثا عن المنبه الأسلوبي القائم على العدول (الانزياح) المتمثل في التقديم والتأخير: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا يزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أقدم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"(الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص:106).

أما عن ظاهرة الحذف فيفصح عن امتدادها الجمالي باعتباره عدولا عن أصل وضع هو الذكر وذلك في ما يلي: "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبْن"(المصدر نفسه، ص : 146) ، ثم يزيد في تعميق الإحساس بجمالية هذا الإجراء الأسلوبي، فيقول: "فإنك تعلم أن رُبَّ حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد"(المصدر نفسه، ص : 151).

كان بالإمكان ملاحقة عديد المنبهات التي جعلتها الأسلوبية مناط بحثها، وهي شديدة البروز عند عبد القاهر، لهذه الاعتبارات المتعلقة بجمع نظرية النظم لمظاهر عبقرية اللغة على التكيف بحسب الحالات الشعورية للمبدعين رغبة منهم في تحقيق الصدق الفني والتأثير التجاوبي، ومعه في ذات الوقت المحافظة على مقولات النحو بحسب مقتضيات التعليق التي رصدنا، انتهى بعض الباحثين في هذه العلاقة إلى القول أنه بالنظر إلى "عبد القاهر الجرجاني فسوف نجد (دلائل الإعجاز) بداية لتحرك صحيح نحو نظريته في فهم النص الأدبي ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب في ذاته من خلال مفهوم النظم وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي"(للمزيد ينظر ،محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبية ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط/1، بيروت ،سنة :1994، ص :260 وما بعدها) .

يعد تراث **عبد القاهر** بحق نقطة فارقة في تطور مباحث الجمالية في البلاغة العربية، وإنه ليس أدل على ذلك من طبيعة معجم المصطلحات الذي مرّ بنا، وربما يكون الرأي هو العمل على كشف مدى عطاء نظرية النظم في سياقها التاريخي، مع محاولة استيعابها استيعابا جادا يحيلها إلى آليات فهم وتحليل تستمد قيمتها من طبيعة الموروث التراثي العام الذي أفرزها، ربما كان ذلك أفيد لنا ولتراثنا ولثقافتنا النقدية المعاصرة، من محاولة إيجاد العلاقة بين التراث وما استجد في الثقافات الغربية الحديثة والمعاصرة.